

١١ - أو من بالإنسان

الأستاذ عبد المنعم خلاف

آلهة وحيوانات - عمل الطبيعة في تكوين الإنسان الواحد
- أزهرت الأشجار وأدركت الثمار - مدينة خالدة ذات
سلطان مجيب شامل - جتنا لنحيا لا نموت - الحياة بالفكر
في الجاهل والشامل - مقبرة المادة ومقبرة الروح -
القكاء البطر الجسود - إلى أحضان الأم الكبرى

إذا جردنا الإنسان مما أسبغته عليه الحياة المدنية من أغانيتها
وأنواعها وأشكالها ظهر لنا أن البون بيد جداً بين الإنسان
الذي أخرجته الطبيعة : وهذا الإنسان الذي غيرته الصناعة
وتعميد الفكر . وظهر لنا أن حياته الصناعية عالم مستقل منفصل
خالقه هو . ولكنه عالم غير خالده ولا متوالده إلا بإطراد تقديم
الإنسان . بخلاف مخلوقات الله في الطبيعة فإنها أبدية دائمة تتمر
بها الطبيعة .

وكما فكرت في الفرق العظيم بين حياة رجل على القفزة
وبين حياة رجل ألماني أو إنجليزي أو أمريكي وعقدت موازنة
بينهما في المأكل والملبس والملهي والركب والعمل والإنتاج
والفكر والإحاطة بآفاق الدنيا والتسلط على الطبيعة ظهر لي أن
الأول يكاد يكون في صفوف نوع آخر غير الإنسان ، وأن الثاني
ينقصه الروح والعدل ليكون الإنسان المنتشود البار بوصايا الله ؛
لأنه هو الذي أحسن الأخذ عنه وخلفه في الماديات خلافة واسعة
ونمت على يده الحياة وتنوعت وتشققت بجاريها وتوسعت . . .
ولا يجوز عقلاً أو شرعاً أن يطلى الأول الحياة وهزتها ،
وأن يتسلط على الثاني ما دام كل منهما على حاله . كما لا يجوز
لحيوان أن يسخر إنساناً .

وكما استعرضت معارف الإنسان للذني المدونة في كتبه
ومحفنه وألواحه وأرضه وآثاره أدركت مبلغ ما حمله من أمانات
الحياة . وأسرار الدنيا ذات لتصمت والعمل .

ولا شك أن الإنسان المادى الذي يقرأ صحيفة يومية يحمل
ذهنه من قضايا العالم وأخباره في الصباح والمساء ما لم يكن في
حسبان أحد من السابقين ووجدانه . . .

ولا شك كذلك أن هذا كله قد ترك أثره الواسع الشامل في
تكوين ذهن الإنسان الحالي وتكليف أعصابه وإحساسه بالحياة ،

غير ما كان عليه الناس في زمن المواصلات والتثقافات المحدودة .
إن الأقدار تصنع عقل الإنسان الحديث وقلبه صناعة تشترك
فيها كل معارف الحياة المصرية

ومن الأعمال العظيمة التي تقوم بها الطبيعة الآن عملها
في تكوين الإنسان الواحد الخاضع لمؤثرات واحدة . ونحن الذين
يقع علينا تأثير أعمالها العظيمة ونعيش في فيبوية عن خطواتها بنا
لا يدرك منا هذا التأثير إلا الراسدون المسجلون الذين يحملهم
الأقدار مخصصين لرصد خطوات الحياة وتسجيل ظواهرها .
وهؤلاء يكادون يكونون ناديين عن جبال الشبكة التي تلف غيرهم
من أبناء الحياة .

فقد تركزت المعلومات فصارت للقارات كالقوى . . . وملايين
الجنود كأصابع اليد . . . والديابات كالنمال . . . والطائرات
كالمصافير . . . وأخبار العالم الانساني كله كأخبار الحى
الواحد . . .

وهكذا تتركز الحياة وتتلخص في فكر الإنسان وتخترل
سورها العظيمة في أرقام وحروف . . .

هذا للمصر جدير أن يسمى « عصر الفوران والفلانيان »
- على سبيل التشبيه بسطح ماء في وعاء على نار - فقد لبثت
سطح الحياة ساكناً في عصورها للساقفة لا يتحرك إلا حركات
موضعية . كما يلبث سطح الماء أول ما يوقد عليه في النار . حتى
إذا ما وصلت حرارته إلى درجة للفلانيان هدر وقار واشتد وقذف
وتبخر وتحول . . .

إن عوامل الحرارة كانت تحتته من قديم ، ولكنها لم تصل
معه إلى درجة الانصاج والحركة السريعة والتحويل إلا أخيراً .
وكذلك عصر الانسانية الحالي هو عصر ظهور كوامن أسرارها
وأسرار الطبيعة ظهوراً شديداً متلاحقاً .

وقد انكشفت حيوات جميع الناس للناس ؛ فملوا أنواعهم
ولفاتهم وأديانهم ومذاهبهم في الحياة
وقد كانوا ضائعين مضمورين تائبين كأسرة مفرقة فرقتها
حادث . . . ثم جمتهم الظروف مرة ثانية . . .

إنى أنجيل صورة الدنيا في عقول ساكنيها الأولين ،
وصورتها الآن في عقول بنينا المثقفين ، فيصيحى دهش مشوب
بفرح وبهجة وشكر لله على تسديده الإنسان إلى غابة ابتدأت
تنكشف وجوهها

للناس لا يستطيعون منها فراراً بعد ما دخلت عليهم أقطارهم
قسراً واقتداراً

هي قدر لازم لا تفكك منه كأنها للروح والأمطار والأشعة
ومما يؤكد أنها خالدة مؤبدة انتشارها في كل مكان وليست
كالمدنيات الصائفة الموضعية ذات المصيبة القومية . لأنها قامت
على العلم الذي لا تتناقض حقائقه بتمدد الأماكن والأجناس ،
بل تتلام وتوافق بتوافق قوانين الطبيعة الواحدة

وكانت المدنيات السابقة مجارب وجذوراً متمسبة لجذع
عظيم هو هذه المدنية الحالية

ولم يحدث في الماضي أن سهبت مدنية للناس جميعاً كما فعلت
هذه المدنية ، فحضع لها للوحد والوئى والمحد واللؤمن والوئى
والإسكيمى والشرق والغربى
ولم يحدث أن وجدت ميادين كثيرة مشتركة بين الناس
جميعاً كما وجدت ميادين النشاط العلمى والآلى والصناعى والسياسى
والأدبى فى رحاب هذه المدنية .

ولم يحدث أن اشتبكت مصالح الناس جميعاً كما اشتبكت الآن
بفعل السرعة وسهولة الانتقال وتبادل المنافع وتغلب الاحتياجات
ولم يحدث أن درست ثقافة واحدة فى مدارس الأمم جميعها
كما درست هذه الثقافة المصرية .

فأى مكان نجما من سلطان مدنية الزمان ؟
أى طريق لم نجس خلاله السيارة ؟ أى جو لم تخفق فيه
الطيارة ؟ أى بلد لم يفتضح بنور الكهرباء ؟

إن هذه المدنية تحيط بالإنسان فى كل أفق من أفاق حياته .
وإنى استعرض الآن كل ما يحيط بى وأنا أكتب فأجد جميع
ما تقع عليه عيني قد اشتركت فيه آلاف العمليات الإنسانية
المقعدة . وقد صار إحساسى بها كإحساسى بضرورات حياتى .
وأكاد لا أرى شيئاً خالصاً من يد الطبيعة وحدها إلا جسمى ...
وحتى هو لم يعلم من هندسة الخلاق و « رتوشه » !

ويمكنك أن تجرد الأرض مما فعله الإنسان فيها وما عقده
وركبه ، لتدرك مدى الحياة الأرضية من غيره ومدى العالم الذى
أحده هو ... وإذا ألقيت نظرة على شارع فى نيويورك أو لندن
أو القاهرة فإنه يروعك أن ترى ما فى مخازنه ومناظره وآثار
الأيدي التى عملت فيه ، حتى لا تستطيع بمض الأذهان
أن تتخيل الدنيا خالية منه من طول الألفه وطول النقلة

وكان الأنبياء والحكماء القدماء وحدهم هم المدرسين وجهات
الحياة . وكانوا فى الناس ما يكون البصير بين عميان ، والأب
لكبير بين صبيان ، والراعى بين قطمان . وكان قليل من الناس
هم الذين يدركون ما يشيرون إليه . ولكن الآن صار العلم والدين
والإدراك الضمير شيئاً مشاعاً كالهواء والماء ، تقاربت فيه
المتقدمات والآراء

أجل ، هذا زمن حصاد جهود الإنسانية ؛ فقد أزهرت
الأزهار وأدركت الثمار ، وظهر الحقل مستوى السوق مستنقظ
الأعواد ، قد أينعت فيه أغلب الأسرار وحان قطفها ! !

أنظر فى بقاع الأرض جميعها تجد إنسانية تفتح عيونها
وتستيقظ من غفلاتها لتدرك الحياة الحديثة وتشارك فيها وتلاق
مع غيرها فى خدمتها . وقد زال الانهزام والتموض اللذان كانت
تصهما عقول الإنسانية القديمة والمتوسطة فى ظواهر الحياة .
وسار الإنسان معتمداً على نفسه وحسابها الدقيق وأخذها بأساليب
الطبيعة فى الإنتاج والاختراع ، وترك الاعتماد على الأمانى ،
فضاقت دائرة الاعتماد على الأقدار ...

ولتلفت إلى الماضى كثيراً لتدرك مدى ما كسبناه وحصلناه
من محاصيل الحياة كإنسانية واحدة وضع كل شعب وكل
حضارة لبنة فى بنائها ، حتى خرجت هذه الحضارة العالمية المشتركة
التي اقتضت كل قطر وكل مدينة فى الأرض ، وصارت كقند
الله الذى لا مرد له ولا مفر منه

إنها حضارة باقية خالدة لن تبيد ولن تفتنى ولن ترد ! إذ أن
بنورها ألقيت فى كل مكان ونبقت فيه . فلئن ذهبت أوروبا إلى
أطراب والسمار لحوف تبنى أمريكا ... ولئن ذهبتنا معاً لحوف
يحمل للشمل أم للشرق وتلك الأمم المنتورة فى أرض الله
وجزر المحيطات وغيرهم ممن اتقنوا بأن هذه المدنية هى نبوة
الطبيعة ذات المعجزات الباعثة التى لا مفر من الإيمان بها والعمل
لها وأن هذا العصر هو أوان حصاد الللال وجنى القطف التى
زرعها وتمهدا الأقدمون ، وزادت كل أمة فى ميراثها حتى
صار فيها من كل قطر ورد ومن كل أمة مدد ورفد

إن هذه مدنية فرضت نفسها فرضاً على الناس جميعاً . فرضت
آلامها وشرورها كما فرضت إسعادها وخيراتها وعلومها ، وصار

عن التفكير في مبادئ الحياة . . .

طوفوا في شوارعكم أيها الناس بقلب ذاكر للطبيعة مدرك لمبادئها لتعرفوا مقدار ما يمتلك بينها ومقدار قوتكم الابتداعية فتختلفوا لأنفسكم متعجبين عترمين محافظين عليها وعلى قواها الفكرية والانتاجية من الضياع والذهول والنفقات ! إن أفراح الحياة تنمر قلبي حين أطوف بجسدي في الشوارع العظيمة ، أو حين تطوف بي الحياة في دور السينما ، فأرى عجائب ما استحدثه الإنسان في عوالم المواد والماني ...

ولست أزهد في رؤية الحياة المادية وتقصى دقائقها ، لأن كل دقيقة منها ترسل في قلبي دقيقة من التعجب والإيمان ... ما جئنا للحياة لنموت ونستحضر فلسفة الموت من أول يوم ، والقبر ليس نهاية ، وإنما هو بداية مرحلة تالية ... فلي الذين يحملون القبور نصب أعينهم فيموتوا من أجلها كل عظيم ولو كان الصحة أو العلم أو التفاؤل ، أن يملوا أنهم جاءوا ليعيشوا ويحسوا الحياة عميقة فيما خلق الله من شيء ، وينشغوا به انتفاع الحلال والعقل والحفظ ...

ومن الكفر أن تترك الأجسام فريسة للجرائم الفاتكة والآفات وعوامل الشؤم انتظارا للموت الأكبر .. فيدب فيها منذ ولادتنا .. كذلك يجب أن يكون إيمان الرجل المتمدن ... إيمان البصير الواثق بأن عمل النفس البشرية في المادة باب الإيمان لا الكفر كما يتوهم الأغبياء البلهاء الأعرار ! إن لا أعيش في نفسي وحدها ، ولكني أعيش في نفوس بني الدنيا جميعاً ، لأرى الحياة بعيونهم من آفاقهم ، حتى أخرج وسمي كثير من أسرار الحياة في القلوب والعقول ...

وأنصح لأصحاب الإيمان التقليدي أن يستحدثوا في قلوبهم ونظراتهم ما استحدثت ، ليمرفوا أي لذة وأي إيمان مضاعف يفرق قلوبهم ...

وأنصح لأصحاب النظرة المادية والذهول عن الماني ، أن يستحضروا أرواحهم وراء كل نظرة وكل عمل وكل علم ... فإن هذا هو الوضع الحقيقي لحياة الفكر والاستعمال الحق للروح وقوى الجسم ...

ونتمش بأفكارنا وأرواحنا دائماً ، سواء أ كنا في غايات خط الاستواء ، حيث الطبيعة بكر غير مفضوضة لم يطمئنا إنس

ولا جان ... أم في مصانع « فورد » بنيويورك ، حيث يدور الفكر مع الحديد في خفة وتسييد وقدرة !

الغريبون قدموا لنا عبقرية المادة ، فلنقدم لهم عبقرية الروح ... فلنخدم أرواحهم كما خدموا أجسامنا ... !

إنهم استغنوا بذكائهم عما وراء الطبيعة ، وقد كفاهم ذكائهم تسيير أمورهم كلها فيما يتخول إليهم مع أن الواقع أنهم في شبكة الأقدار العليا والتسيير الشامل لحياة الأرض . والرجل الذكي غني بالحيل وتجدد الأفكار . والنسي بيث دائماً على العنيان . ومن هنا أتى الغريبون ودخلت عليهم نكهات الحياة لأنهم اعتمدوا على غنى ذكائهم وحده

وحيث يستغنى الطفل بذكائه وقدرته عن ندى أمه ووراثتها ، ويعلو مستواه البدني والعقلي عن مستواها ، فذلك عهد ابتداء عقوقه لإياها إذا لم يكن ذا ذخيرة مرفورة من الإدراك والحب والرحمة والأدب ، وما دام ينسى أنه قطعة قنت من جسمها وقلبها ، وأنها الوشيعة الوثيقة بينه وبين أرومة الحياة والطبيعة وكذلك ينسى الإنسان الذكي هجره أمام قهر صاحب الطبيعة ويستغنى بذكائه عن الاستمداد منه والاستيعاء منها فيصير مخلوقاً يكاد يكون لا صلة بينه وبين ما في الطبيعة من موجودات تسير طائفة بالإلهام والتوجيه

فهل تترك الغريبيين يذهبون بأرواحنا وأرواحهم في أودية بعيدة عن الرحمة والعدالة والأشواق إلى الجهول والبحث عن الله ذي الجلال ؟!

أتركها وتركهم للحديد البليد القاسي يطبها بطابعه ، ويوحى إليها بياسه سياسة البطش والظنجان ، ويشتلها بضجته المنكرة عن ممسات القلوب وأصوات الضائر ؟

إننا إن تركناهم وتبناهم على الخير والشر فسوف تكون فرانسهم وجزر سيوفهم وطحنين طواحينهم الحديدية الجراء ! فلندكرهم بمبادئ الطبيعة أمنا وأسمهم ، تلك المبادئ التي فيها من منطق الوجدان أكثر مما فيها من الذكاء الجامع وقوة الاختيار من غير ضابط من هدى الطبيعة

وإن الطبيعة لتذكر أبناءها دائماً بوصايا الحق والمعدل كما تذكر الأم البسيطة أبناءها الأذكاء بوصاياها وهواطينها التي